تحولات الرابط الاجتماعي في السياق الرقمي: رؤى وإضاءات سوسيولوجية

هشام لعبودي

مختبر "المجتمع المغربي: الديناميات والقيم"، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة شعيب الدكالي– الجديدة– المغرب

تاريخ الإرسال:2023/07/04 تاريخ القبول:2024/03/21

ملخص: يعمل هذا النص على استعادة أهم الرؤى السوسيولوجية التي قاربت تحولات الرابط الاجتماعي منذ الثورة الصناعية، مع تسليط الضوء على عمقها المفاهيمي والإشكالي، والسياق العام الذي انطرحت فيه الأسئلة المرتبطة بهذا الموضوع، خصوصا بعد الانتقال الرقمي، ناهيكم عن رصد جانب من الدراسات الميدانية السابقة التي تناولت تأثير استعمال تكنولوجيا الاتصال والتواصل الرقمية على الرابط والعلاقات الاجتماعية، والوقوف عند طبيعة الإسهامات السوسيولوجية المطلوبة، في الوقت الراهن، لتقديم فهم أدق لهذا الموضوع.

الكلمات المفتاحية: رابط اجتماعي، تكنولوجيا رقمية، مجتمع الشبكة، حضور عن بعد، هوية، مقاربة إيثنو– سوسيولوجية.

Transformations of the social bond in the digital context: sociological visions and insights

Hicham Laaboudi
Laboratory "Moroccan Society: Dynamics and Values", Faculty of Letters and Human Sciences, Chouaib Doukkali University- El Jadida, Morocco

Abstract: This text restores the most important sociological visions that have addressed the transformations of the social bond since the industrial

revolution, while highlighting their conceptual and problematic depth, as well as the general context in which questions relating to this subject have been raised, particularly in the wake of the digital transition. It provides an overview of prior field research investigating the impact of digital information and communication technologies on social ties and relationships, and outlines the nature of the sociological contributions that are currently needed to provide a more detailed understanding of this topic.

Keywords: Social bond, digital technology, network society, telepresence, identity, ethno-sociological approach.

مقدمة

عرفت المجتمعات الإنسانية منذ بداية الألفية الثالثة انخراطا متناميا في استعمال تكنولوجيا الاتصال والتواصل الرقمية في تفاعلاتها الاجتماعية، حيث سجل استعمال هذه التكنولوجيا توسعا لافتا على الصعيد العالمي، تُرجم من خلال الارتفاع المتسارع في عدد المنخرطين في شبكة الإنترنيت، والذي انتقل "من ما يقارب مليار نسمة سنة 2005، أي ما يعادل 10,3٪ من مجموع الساكنة العالمية، إلى 5,3 مليار نسمة سنة 2022، أي ما يعادل 66٪ من مجموع سكان العالم" (ITU, 2022, p. 1)، وذلك بالتوازي مع نمو عدد المنخرطين في شبكات الهاتف المحمول، الذي "بلغ 73٪ من مجموع الساكنة العالمية و81٪ من مجموع سكان البلدان العربية سنة 2022" (2022, p. 17).

في هذا السياق، أثيرت مجموعة من التساؤلات السوسيولوجية حول التأثيرات المحتملة للتقنية الرقمية على العلاقات الاجتماعية المعاصرة، حيث أن "استعمال الهاتف المحمول والانخراط في العالمين الافتراضي و"السيبيراني" (Le monde cyber)، ساهما في بروز أشكال جديدة من

الرابط الاجتماعي، وذلك في ظل فضاء رقمي يؤسس لعلاقات قرب غامضة، تقوم على غياب الحضور الفيزيقي والاتصال الحقيقي بين المتفاعلين" (Akoun, 2002, p. 13)، مما جعل "الانتقال التاريخي من (استعمال) التكنولوجيا الميكانيكية (التي وسمت المجتمعات الصناعية) إلى (تداول) تكنولوجيا المعلومات (السائدة في المجتمعات ما بعد الصناعية)، يساهم في قلب مفاهيم السيادة والاكتفاء بالذات، التي لطالما رسخت، إيديولوجياً، مفهوم الهوية الشخصية، منذ نحته من طرف الفلسفة اليونانية" (Barglow, 1994)؛ وفي المحصلة، "أصبحت السوسيولوجيا غير قادرة على تجاهل موقع ودور التكنولوجيا (الرقمية والمعلوماتية) في الديناميات الاجتماعية، (...) كما غدا من غير المجدي التمييز بين البعد التقنو- معلوماتي (TIC) والبعد غير المعلوماتي (Non-TIC) في الواقعة الاجتماعية" (Dagiral, Martin, 2017).

إن النمط الجديد من التفاعل الاجتماعي القائم على "الحضور عن بعد (Téléprésence)، كما يسميه "بول فيريليو" (Paul Virilio)، (...) يولد وجها جديدا للعالم (المعاصر)، تتفكك فيه الروابط الاجتماعية القديمة لصالح أشكال جديدة من الفردانية والروابط الاجتماعية" (Akoun, 2002, p. 15)، حيث يصبح فيه "استعمال الأداة التقنية انعكاسا لبناء اجتماعي (جديد)، يغير شكل الظواهر المرتبطة بأسئلة الهوية والروابط والعلاقات الاجتماعية" (Jouet, 2003, p. 59).

من هذا المنطلق، تشكل البحوث السوسيولوجية حول الآثار التي يخلفها الاستعمال المتزايد لتكنولوجيا الاتصال والتواصل الرقمية على الرابط الاجتماعي، مدخلا علميا مهما، لتقديم قراءات معمقة حول موضوع لم يتم تناوله بالقدر المطلوب في الوقت الراهن، خصوصا وأن بعض الدول، كالمغرب مثلا، ما فتئت تعلن أنها مقبلة على "تبني نماذج تنموية جديدة، تضع "التحول الرقمي" في صلب تطلعاتها" (اللجنة الخاصة بالنموذج التنموي، 2021، ص 135-136)، وتهدف، في العمق الاجتماعي لهذه النماذج، إلى "تنشيط الحركية الاجتماعية وتقليص الفوارق، والحد من التقاطب داخل المجتمع، وتوطيد الرابط الاجتماعي" (2021، ص 106) من خلال التحول المذكور.

1. تحولات الرابط الاجتماعي من منظور سوسيولوجيا إيميل دوركهايم ومعاصريه

أدت سيرورة تحديث المجتمعات الإنسانية، ابتداء من نهاية القرن 18م، وبالتزامن مع الثورات الديموقراطية والصناعية الأوروبية، إلى قلب النظام الاجتماعي التقليدي الذي كان سائدا آنذاك، حيث بدأت تتشكل، تدريجيا، خلال القرن 19م، مجموعة من الأشكال الجديدة للعلاقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ([Hobsbawm, 2011 [1962])، تحت تأثير ديناميات غير مسبوقة، لعبت فيها الحركية المهنية والمجالية للأفراد، وتبادل الخدمات والممتلكات، وانفتاح هوامش التواصل وتداول الأفكار أدوارا اجتماعية هامة، مما جعل الرابط الاجتماعي الذي كان قائما في المؤسسات التقليدية، آنذاك، يبدأ في الاهتزاز، بفعل تنامي النزعة الفردانية داخل المجتمع، حيث "أن العالم العصري أصبح يتجه، بشكل واضح، نحو القطع مع الروابط التي تُوحّد الفرد مع البنيات المجتمعية التقليدية، كالعشيرة أو الكنيسة أو مجتمع القرية، بالإضافة إلى قطيعته مع الروابط القائمة على اعتبارات باطرياركية" (Nisbet, 2012 [1966], p. 63).

في هذا السياق، ظهرت مجموعة من الأطروحات التي حاولت مقاربة التحولات الطارئة على الرابط الاجتماعي في المجتمع الصناعي، كأطروحة "هيربرت سبنسر" (Herbert Spencer) ([1885] 2008) التي اعتبرت أن التطور الحاصل في المجتمع، يعكس هامش الحرية الذي أصبح متاحا للأفراد، بفعل المرونة التي أضحوا يتملكونها لتنظيم علاقاتهم الاجتماعية، وفق إرادتهم الشخصية والتعاقدات التي ينخرطون فيها، معتبرا أن المجموعة البشرية هي في طور الانتقال من منظومة للمجتمعات العسكرية الجامدة والمنغلقة على نفسها، والمولعة بالحرب والتسلسل الهرمي للعلاقات الاجتماعية، إلى منظومة المجتمعات الصناعية المفتوحة والديناميكية والمنتجة، والقائمة على التعاقد والحرية الفردية؛ في حين ذهبت أطروحات أخرى، كتلك التي أتى بها "فيرديناند طونيز" (Ferdinand Tönnies) (1887)، إلى اعتبار أن التطور المذكور يؤشر على نهاية التناقض بين قطبي الجماعة– الطائفة والمجتمع.

على نحو عام، يبدو أن موضوعي الرابط الاجتماعي وتشكل فردانية العصر الصناعي، لم يتم تناولهما بالصرامة والموضوعية المطلوبتين إلا مع أطروحة "إيميل دوركهايم" (É. Durkheim)،

التي "ساءلت العلاقة القائمة بين الشخصية الفردية والتضامن الاجتماعي، عبر ملامسة الكيفية التي تزداد بها استقلالية الفرد، بالتناسب مع تعاظم ارتباطه بالمجتمع الجديد (الذي أصبح يتواجد فيه)" (Durkheim, 1991 [1893], p. 43).

لقد اعتبر "دوركهايم" أن مفهوم الرابط الاجتماعي يرتبط بمفهوم "الانتظام الاجتماعي" وبالعلاقات بين الفرد والمجتمع، من جهة، وبين الدولة والمجموعات الاجتماعية، من جهة ثانية، لهذا رأى أن اختزاله في سياقات دون أخرى أو ربطه بحدود ومسافات بعينها، سيكون مدعاة إلى إخراجه عن طبيعته وإفراغه من دلالته الحقيقية (Rhein, 2002, p. 194).

على أساس هذا المنطق "الكلياني" (Holistique)، "رأى دوركهايم أن عملية التصنيع وتزايد الكثافة المادية والأخلاقية للمجتمعات، على إثر انتقالها من مجتمعات ذات تضامنات "ميكانيكية" (تتميز بتصنيع أقل وبضعف تقسيم العمل) إلى مجتمعات صناعية تتميز بتضامنات "عضوية" وبتقسيم أعقد للعمل، يُعتبران العاملين الرئيسيين المسؤولين عن التغير الاجتماعي، وعلى وجه خاص، عن تمايز المجتمعات وتطورها من شكل تضامن إلى شكل آخر، حيث اعتبر أن المجتمعات التي تتميز بتقسيم متقدم للعمل، ينبغي أن تظل "مندمجة" وأن تحافظ على انسجامها وروابطها الاجتماعية، مؤكدا أن هذا التقسيم الجديد للعمل، سيكون عاملا لتحقيق التضامن داخل هذه المجتمعات المركبة، (...) على أساس أن الدولة ستكون، حينها، مدعوة للحفاظ على حضورها في المشهد، من أجل المساهمة في ضمان التضامن الاجتماعي والالتزام الأخلاقي، الذي كانت تحرص على استدامته مؤسستي الأسرة والدين في المجتمعات التقليدية" (2002, p. 195).

من جهة ثانية، يبدو أن التخصص وتقسيم الأنشطة الاجتماعية والتضامن الاجتماعي القائم على التكامل بدل التشابه، بحسب "دوركهايم" ([1893] 1991)، أدى إلى تنوع التبادلات والانتماءات والشخصيات والمسارات والاحتياجات والأذواق في المجتمعات الصناعية العصرية، على نحو جعل الرابط الاجتماعي، في النهاية، يصبح أكثر تنوعا، حيث أضحت المواقع الاجتماعية

للأفراد وهوياتهم الشخصية، التي تكون موضوعا للاعتراف الجماعي في المجتمعات الصناعية، تتحدد من خلال نوعية هذه الروابط.

على هذا الأساس، حدد "سيرج بوغام" (Serge Paugam)، لاحقا، تصنيفا للروابط الاجتماعية انطلاقا من بعدين اثنين: ارتبط أولهما بالحماية التي توفرها الروابط المختلفة، وثانيهما، بالاعتراف الذي يحظى به الأفراد من خلال هذه الروابط، حيث حدد "بوغام"، في هذا الصدد، أربعة أصناف من الروابط الاجتماعية، هي: رابط الأبوة بين الآباء والأبناء، ورابط المشاركة الاختيارية بين الأزواج والأصدقاء والأقرباء، ورابط المشاركة العضوية بين الفاعلين في الحياة المهنية، ثم رابط المواطنة بين أعضاء نفس الجماعة السياسية (Paugam, 2018 [2008], p. 64).

على نحو عام، يبدو أن تصور "دوركهايم" لدينامية الرابط والاندماج الاجتماعيين، بعد الانتقال من المجتمع التقليدي إلى المجتمع الصناعي، ظل مرتبطا، بشكل عميق، بمفهوم دولة الرعاية الاجتماعية، "وبالسياق الحقوقي الفرنسي، وخصوصا بالحق في الشغل، وذلك تحسبا لحدوث تراجعات اجتماعية بعد التغير الذي عرفه تقسيم العمل في المجتمعات الصناعية" (Rhein, 2002, p. 198)، غير أن هذا التصور، "رغم تمييزه للمجتمع العصري من خلال كثافة التبادلات بين ساكنته المتنامية، لم يهتم، بشكل دائم، بدور التقنية في التحولات الاجتماعية الطارئة، رغم كونها كانت حاضرة، في البداية، في مؤلفه "في تقسيم العمل الاجتماعي"، حيث تم تهميش هذا الدور في بقية أعماله" (Dagiral, Martin, 2017)، لصالح اهتمامه الكامل بالظاهرة الدينية (Schlanger, 2012)، مثلما همشته، عموما، سوسيولوجيا نهاية القرن 19م الوليدة، بالرغم من تركيزها على التصنيع والتوسع الحضري والتحولات المرافقة لهما (Dagiral, Martin, 2017)، ليتم انتظار إسهامات السوسيولوجي "مارسيل موس" (Marcel Mauss)، الذي كان أول من قدم الحجة الأساسية، الداعية إلى جعل التقنيات موضوعا للدراسة لدى الإثنولوجي والسوسيولوجي، كما لعب، في رأي الكثيرين، دورًا أساسيًا في التأكيد على الطابع الثقافي للتقنيات والأشياء المادية، بما في ذلك الجسد الإنساني (Martin, 2006, p. 60).

2. رؤى سوسيولوجية جديدة في سياق الانتقال الرقمي

في مرحلة موالية، وعلى إثر الانتقال من عصر التكنولوجيا الميكانيكية إلى عصر التكنولوجيا الرقمية، أضحت البشرية تواجه تحديات اجتماعية غير مسبوقة، بفعل التغيرات العميقة التي أحدثها الانتقال الرقمي على مستوى المظاهر المرتبطة بالتنظيم والعلاقات الاجتماعية، مما دفع العديد من الباحثين والفاعلين الاجتماعيين إلى إثارة جملة من التساؤلات حول واقع ومستقبل تأثير التقنية الرقمية على المجتمع الإنساني، وحول دور التكنولوجيا الرقمية في بناء روابط اجتماعية ونزوعات فردانية جديدة.

فابتداء من نهاية سبعينيات القرن الماضي، برزت سوسيولوجيا تكنولوجيا الاتصال والتواصل التي أولت اهتماما خاصا للتقلبات (الاجتماعية) التي تواكب استعمال هذه التكنولوجيا، وللأدوار التي أصبح يلعبها مستعملوها، حيث أدت الدراسات الأمبريقية، خلال هذه الفترة، إلى تجديد وتطوير مقاربات سوسيولوجيا الإعلام التي كانت سائدة بالولايات المتحدة الأمريكية ثم أوروبا، ابتداء من ثلاثينيات القرن الماضي، والتي ركزت على تحليل آثار سلطة الصحافة والراديو والسينما ثم التلفزة، بعد الحرب العالمية، على آراء الأفراد، لتتبلور، في هذا السياق، ثلاث رؤى تجديدية لهذه السوسيولوجيا، ارتبطت بمسارات سوسيولوجيا الشغل وسوسيولوجيا العلوم والتقنيات وسوسيولوجيا الثقافة والترفيه، حيث أدى الارتباط بالمسارين الأخيرين، في النهاية، إلى إعطاء موقعا محوريا لمفهوم "الشبكة" (Dagiral, Martin, 2017)، والذي تبلورت معه مقاربات جديدة اهتمت، أساسا، بالشبكات الاجتماعية الرقمية، باعتبارها مدخلا نوعيا لدراسة تأثير تكنولوجيا الاتصال والتواصل الجديدة على الروابط الاجتماعية وتشكل الفردانيات المعاصرة، وتأثيرها على الأشكال الجديدة للحضور والغياب والاتصال والانفصال والأنا والآخر في المجتمع الرقمي.

في هذا الإطار، ذهبت الرؤى السوسيولوجية المعاصرة في اتجاهين متعارضين: أولهما، كانت له نظرة متشائمة إزاء هذه التأثيرات على الرابط الاجتماعي والعلاقات البين- شخصية، وثانيهما، تميز بنزوعات متفائلة اتجاه الآثار التي تخلفها التكنولوجيا الرقمية على مستعمليها، حيث يعتبر الاتجاه الأول أن "هذه التكنولوجيا تروج لإيديولوجيا مركزية، تقود إلى تغليط المواطنين، يوما بعد

يوم، وترسخ نزعة "لا إنسانية" (Anti-humanisme) بفعل انخراطها المتنامي في تطوير الذكاء الصناعي، (...) كما أنها أسست للانفصال الفيزيقي ونهاية المقابلات المباشرة بين المتفاعلين، مرسخة بذلك لهوية متقلبة، تقوم على أساس التوليف بين الهويتين الافتراضية والحقيقة للأفراد" (Laflamme, Lafortune, 2006, pp. 97-98).

بالإضافة إلى ذلك، يرى الاتجاه المتشائم أن الاستعمال المتزايد للإنترنيت (وللأدوات الإلكترونية المرتبطة به) أصبح يرتبط ارتباطا وثيقا بالحالة المرضية التي يعاني منها الإنسان المعاصر، والتي تتمثل في وحدته رغم بقائه "متصلا" (Connecté) على نحو مستمر، حيث اعتبر "فيليب بروتون" (Philipe Breton) (2000)، في هذا الصدد، أن الشبكة الرقمية عوضت "العيش الجماعي المشترك" (L'être ensemble)، "بالممارسة التفاعلية" (L'interactivité)، مما أسفر عن خلق علاقات مغرقة في الانفعالية والسرعة، ومفتقدة للالتزام المطلوب، ناهيكم عن كون التطور التكنولوجي الحاصل لا يعمل على تحسين التواصل الإنساني، بل وعلى العكس من ذلك، تضيف التكنولوجيا الرقمية "بيروقراطية رقمية للبيروقراطية الإنسانية القائمة" (Wolton, 1999, p. 109).

في المقابل، يرى الاتجاه المتفائل إزاء الاستعمال المتزايد للتكنولوجيا الرقمية في التفاعلات الاجتماعية، أن "هذه التكنولوجيا ترفع من جودة الحياة، على اعتبار أن "مجتمع الشبكة" (La société en réseau) الذي يُحوِّل الدينامية الزمكانية، يعمل على اختزال التنقلات التي تتطلبها الالتزامات اليومية، مما يتيح إمكانية أكبر للاستفادة من الزمن المخصص لممارسة الهوايات الشخصية، (...) وبالتالي التمتع بقدر أكبر من الحرية، (...) كما أن الطرق السيارة الإلكترونية، بمختلف تطبيقاتها التواصلية، تمثل سبيلا لاكتساب معارف جديدة ذات صبغة عالمية، وتسمح بالمحافظة على العلاقات الاجتماعية مع الآباء والأصدقاء، على نحو أكثر سهولة، رغم العراقيل التي تحول، في الغالب، دون القيام بزيارتهم بشكل مباشر" (Laflamme, Lafortune, 2006, p. 98-99).

من جانب آخر، يرى أصحاب هذا الاتجاه المتفائل أن "الشبكة الإلكترونية (E- réseau) باعتبارها الوجه المهيمن في تكنولوجيا التواصل، (...) تمثل شبكة غير هرمية يشكل فيها التفاعل مركزها الأساس، (...) مما يجعل سهولة الاستخدام والوصول إلى المعرفة ميزتيها الرئيسيتين" (Sfez, 2002, p. 20-21)، وبهذا المعنى، يُصبح غير المتصلين بها عرضة للتهميش السريع، وبالتالي سيجدون أنفسهم مرغمين على البحث عن كافة السبل الممكنة للاتصال بالشبكة، خصوصا أمام شيوع خدمات الإنترنيت وسهولة الحصول على الأدوات الإلكترونية التي تستلزمها، بما يسمح لهم، في النهاية، بالتواجد العادل في الفضاءات العمومية الرقمية، ونيل أشكال جديدة للحماية والاعتراف، التي لم يتوفَّقوا في نيلها في ظل المنظومات الاجتماعية السابقة؛ وعموما، يرى تيار المتفائلين أن هذه الشبكة وأدواتها تمكن من شيوع التطور التقني، الذي "يُعدُّ، أيضا، عاملا للتطوير الاجتماعي، حسب ما خلفه الإرث الوضعي (Positiviste) للقرن 19م" (Durand, Scardigli, 1997, p. 658).

3. دراسات ميدانية حديثة

عرفت الساحة البحثية السوسيولوجية، منذ بداية الألفية الثالثة، بروز مجموعة من الدراسات الغربية، التي حاولت التوقف عند علاقة تكنولوجيا الاتصال والتواصل الرقمية بالمجتمع، حيث ذهبت في أغلبها إلى تبيان دور هذه التكنولوجيا في تسهيل الاتصال الاجتماعي، فاعتبرت، مثلا، الدراسة التي أنجزها "كيت هامبتون" (Keith Hampton) و"باري ويلمان" (Barry Wellman) (2000)، أن هناك نوعا من التناسق بين استعمال تكنولوجيا الاتصال والتواصل الجديدة وبين ازدياد الاتصال الاجتماعي، على اعتبار أن الروابط الاجتماعية التي برزت بحي "نيطفيل" (Netville) ضواحي مدينة "طورونطو" الكندية (Toronto)، لم تعد تقتصر فقط على اللقاءات الجسدية المباشرة، بل امتدت خارج هذا الحي الحديث، بفضل تزويده ببنية تحتية إلكترونية شاملة.

من جهة ثانية، اهتمت دراسات أخرى باختبار مدى تأثير الإنترنيت على العلاقات بين-الشخصية، وقدرته على المحافظة على تنوع الروابط الاجتماعية وصيانتها، كالدراسة التي أنجزها "نورمان ني" (Norman Nie) و "إيربرينغ لوتز" (Erbring Lutz) (2002) حول تأثير الإنترنيت على الحياة اليومية الأمريكية، وتقرير "مركز سياسة التواصل الأمريكي" (UCLA, 2000) حول امتدادات العلاقات الاجتماعية الافتراضية التي يتم إنشاؤها على الشبكة العنكبوتية.

بين هذا وذاك، اعتمدت أغلب الدراسات السوسيولوجبة التي أنجزت منذ ظهور "الويب 2.0" (Web 2.0)، أوائل العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، على تقنيات البحث الكمي، حيث يلاحظ غلبة المنطق الإحصائي في مجمل هذه الدراسات، على اعتبار أن استعمال الاستمارة الورقية أو الإلكترونية كان العنصر المنهجي المركزي الذي تشترك فيه أغلب الدراسات المنجزة، والذي كانت تنضاف إليه تقنيات تكميلية لتجميع معطيات البحث، كالملاحظة أو المجموعة البؤرية أو تقنية التوثيق، حيث اعتمدت دراسة "باري ويلمان" و"كيت هامبتون"، مثلا، على أربع تقنيات بحث، وهي: الاستمارة والملاحظة ومجموعة النقاش والتحليل الوثائقي (Hampton, Wellman, 2000)، في حين اعتمدت دراسة كل من "نورمان ني" و"إيربرينغ لوتز" على عينة عشوائية من الساكنة الأمريكية (n = 4 113)، تم استجوابها باستعمال تقنية الاستمارة الإلكترونية (Nie, Lutz, 2002).

أما فيما يخص السياق العربي، وبالتحديد السياق المغربي، فقد تميز فيه البحث السوسيولوجي حول تأثير تكنولوجيا الاتصال والتواصل الرقمية على العلاقات والروابط الاجتماعية بندرة لافتة، متخذا طابعا مؤسساتيا صرفا في بعض الدراسات، من قبيل تلك التي قام بها المجلس الاقتصادي والاجتماعي والبيئي حول موضوع "التكنولوجيا الرقمية والقيم: آثارها على الشباب" (CESE, 2017)، والبحث الوطني حول الرابط الاجتماعي الذي أعده المعهد الملكي للدراسات الإستراتيجية، والذي خصص بعض الأسئلة العامة لاختبار موقع وتأثير التكنولوجيا الرقمية على الروابط الأسرية ورابط الصداقة والجوار والروابط المهنية، والعلاقات في الفضاءات الأكاديمية

والمدرسية (IRES, 2012, pp. 107-110)، حيث استندت هذه الدراسات، هي الأخرى، إلى المنطق الإحصائي، عبر اعتمادها، أساسا، على تقنية الاستمارة في تجميع المعطيات الميدانية، أما باقي الدراسات فلم تخرج عن نطاق بعض الأبحاث الكمية، التي اهتم جانب منها بالبحث في تأثير تكنولوجيا الاتصال والتواصل على الممارسات التعليمية أو التعلُّمية ببعض المؤسسات التربوية المغربية (Oulmaati, Ezzahri, Samadi, 2017 ; Biaz et al, 2009 ; Ait Kaikai, 2014)، واتجه بعضها الآخر إلى دراسة موقع هذه التكنولوجيا في بعض القطاعات المهنية من قبيل الإدارة العمومية والقطاع البنكي المغربيين، وذلك من وجهة نظر تنظيمية وتدبيرية صرفة بعيدة عن أي نزوع سوسيولوجي صريح (Berdi, Sebbar, 2018 ; Benabdelhak, 2020 ; Ikkou, Berdi, 2019).

4. آفاق البحث السوسيولوجي حول تحولات الرابط الاجتماعي في السياق الرقمي

يتبين من خلال تصفح أهم الدراسات السوسيولوجية الحديثة حول تحول الرابط الاجتماعي في السياق الرقمي، أنها انقسمت، عموما، بين تيارين متعارضين: أولهما، متفائل بشأن التأثيرات الإيجابية للتكنولوجيا الرقمية على العلاقات الاجتماعية، وثانيهما، يرى أن هذه التكنولوجيا تهدد التماسك الاجتماعي، وتزيد من عزلة الفرد عن محيطه الواقعي، غير أن العودة إلى التبريرات التي يوردها هذا الطرح أو ذاك، تبين أن زمرة هامة من الأبحاث المواكبة للطرحين معا، لم تتخلص، تماما، من الخلفيات الإيديولوجية التي تؤطرها، والتي قد ترتبط، ربما، بتهافت القوى الاقتصادية الرقمية على خلق أسواق جديدة لها: فهل تتعارض مثلا الفكرة القائلة بأن الإنترنيت هو قاطرة للتطور الاجتماعي، مع فكرة أنه يشكل أداة للهيمنة (ولاستدامتها)؟ أو فكرة سماح الشبكة العنكبوتية بالرفع من مستوى تبادل الأفكار والتجارب داخل المجتمع مع فكرة مساهمتها في توسيع الهوة بين الطبقات الاجتماعية؟؛ كل ذلك، يُبرز الحاجة الملحة إلى إنجاز دراسات سوسيولوجية تتوخى الحدود القصوى من الموضوعية في تناول مواضيعها الجديدة، وتكون قادرة على مراجعة أدواتها المفاهيمية والمنهجية، لمقاربة مواضيع غير مكتملة وتتحول بشكل متسارع ومستمر، بالإضافة إلى أهمية انفتاحها على بعض المجالات التي لم يتم اختبار حجم وشكل

تأثير التكنولوجيا الرقمية على الروابط الاجتماعية السائدة فيها، كالمجال القروي على وجه خاص.

على هذا الأساس، تبرز الحاجة الملحة إلى تكثيف البحوث السوسيولوجية "الكيفية" لفهم التحولات التي يعرفها الرابط الاجتماعي في السياق الرقمي، وذلك عبر اختبار المعاني التي يعطيها مستعملو هذه التكنولوجيا على التحولات التي تطرأ على ذواتهم وروابطهم مع محيطهم الاجتماعي، خصوصا وأن أغلب الدراسات السابقة اعتمدت منطقا كميا وإحصائيا، همَّش، في أحايين كثيرة، صوت المشاركين في البحث وتمثلاتهم الخاصة إزاء الموضوع المدروس.

وفي المُحصِّلة، سيصبح التساؤل حول سيرورات وخصائص انبناء الروابط الاجتماعية الرقمية جراء الاستعمال المتزايد لتكنولوجيا الاتصال والتواصل الجديدة، محور الأبحاث السوسيولوجية الطامحة إلى تقديم إسهامات جديدة، بالتوازي مع تحليل مدى تأثير الانتقال الرقمي على المشاركة والالتزام الاجتماعيين، وعلى شعور الأفراد بالحماية والاعتراف، ومدى مساهمته في تقوية أو إضعاف الشعور بالحرية والاستقلالية عن مختلف المؤسسات الاجتماعية القائمة، وبالتالي تأثيره على التضامن والتماسك الاجتماعيين.

5. في الحاجة إلى مقاربة إثنو- سوسيولوجية للأبحاث الجديدة

يبقى البحث السوسيولوجي المنشغل بتكنولوجيا الاتصال والتواصل بحثا سوسيولوجيا بامتياز، فرغم كون المعطيات المجمعة من الشبكة العنكبوتية (مدونات، شبكات اجتماعية..إلخ) تستلزم مهارات وأدوات جديدة لإجراء البحث السوسيولوجي، غير أن الأساسيات المنهجية تبقى نفسها، حيث أن مهمة السوسيولوجي لا تتغير بسبب المواضيع الجديدة المطروحة (Dagiral, Martin, 2017)، بل ما يتغير هو أهمية تنويع التقنيات المنهجية المستعملة، وتكييفها بحسب طبيعة الشبكات الاجتماعية الرقمية المدروسة، مع الحرص على المراقبة المستمرة لفعالية كل تقنية على حدة، بحسب المجالات والديناميات المتناولة.

من هذا المنطلق، تبرز الحاجة إلى اعتماد المقاربة "الإيثنو- سوسيولوجية" (Ethno-sociologique) لتأطير البحوث حول هذا الموضوع، وذلك لاعتبارات منهجية صرفة، ترتبط، أساسا، بالتغير الذي طرأ على مستوى "حركية" الأفراد في المجتمعات المعاصرة الموصولة بالعالم الرقمي، حيث أن فرص نيل "الحماية" و"الاعتراف" والفعل ورد الفعل والتنقل بين العالمين الواقعي والشبكي والعالمين المحلي والخارجي، أضحت تدفع الباحث إلى الاهتمام بالتغيير المستمر لمواقعه في الميدان، ولزوايا نظره لمواضيعه البحثية، وذلك من أجل الرفع من القدرات الكشفية لدراساته، التي أضحت تتأجرأ في سياق نظامٍ اجتماعيٍ جديد مُتَمَفْصِلٍ بين مجالٍ واقعي وآخر افتراضي، والذي يترافق بانبناء أشكال متجددة للاتصال والانفصال، وللحضور والغياب، وببروز منطق جديد في تمثل قضايا الانتماء والهوية، وفي التمييز بين الداخل والخارج، وبين الأنا والآخر، وبين الواقعي والافتراضي.

في ضوء هذه المتغيرات، يبدو أن ما يجعل المقاربة الإثنو- سوسيولوجية الأكثر استجابة لمتطلبات البحث حول تأثير التكنولوجيا الرقمية على الرابط والعلاقات الاجتماعية، "كونها تختلف عن نظيرتها السوسيولوجية التقليدية، بتفضيلها لدراسة "مقطع خاص" من الواقع الاجتماعي التاريخي، من خلال إجراء بحث أمبريقي ميداني" (Bertaux, 1997, p. 7)، حيث "تتجلى الفرضية المركزية لهذه المقاربة، في كون الملاحظة المعمقة للوحدات الصغرى (Microcosmes)، تُمكّن من تحديد منطق الفعل والديناميات الاجتماعية، وسيرورات إعادة الإنتاج وحدوث التحولات، وبالتالي تمكن من تلمس، على الأقل، بعض جوانب المنطق الاجتماعي للوحدات الاجتماعية المتوسطة (Mésocosme) الحاضنة لهذه الميكروكوزمات، والتي (أي الميزوكوزمات) تُشكل، في مجموعها، العالم الاجتماعي في شموليته (Macrocosme)" (1997, p. 14).

إن المقاربة الإثنو- سوسيولوجية التي "تنقل إلى البحث السوسيولوجي المبدأ المنهجي الإثنولوجي، القائم على الدراسة المباشرة (In situ) للحياة الاجتماعية" (Derèze, 1993, p 1-2)، بكل ما يعنيه ذلك من انخراط كامل للباحث في الميدان، "ستمكن من البلورة التدريجية

لمجسم من الفرضيات المقبولة، ولنموذج تحليلي مبني على ملاحظات منبثقة من وصف مستفيض للميكانيزمات الاجتماعية، وذلك من أجل اقتراح تأويلٍ للظواهر الملحوظة أكثر من تفسيرها" (Bertaux, 1997, p. 19)، حيث أن ذلك سيستلزم "الأخذ بعين الاعتبار، وفي نفس الآن، الوضعيات الخاصة (للمشاركين في البحث) وبنية الأنساق الاجتماعية الكبرى، (...) والاهتمام ببناء الموضوع بناء ديناميكيا يتبلور مع تقدم مسار البحث" (Derèze, 1993, p. 2)، وعبر الذهاب والإياب المستمرين بين "النسق" وبين تجارب الأفراد في تفاصيلها الدقيقة.

خاتمة

تنبع، إذن، أهمية اعتماد المقاربة "الإيثنو- سوسيولوجية" في الأبحاث المتمحورة حول تأثير استعمال التكنولوجيا الرقمية على الرابط الاجتماعي من اعتبارات منهجية صرفة، ترتبط، أساسا، بالتغير الذي طرأ على مستوى علاقة الأفراد فيما بينهم ضمن السياق الجديد الذي أصبحوا يتواجدون فيه، حيث أن الارتباط بسياقات ثقافية واجتماعية متنوعة ومتعارضة، أحيانا، أضحت تدفع الباحث إلى الاهتمام بالتغيير المستمر لزوايا نظره لمواضيعه البحثية، وذلك من أجل الرفع من المشروعية العلمية لدراساته التي لم يعد ممكنا تأسيسها على معطيات إحصائية صرفة، حيث لم يعد الباحث ينزل إلى نفس الميدان مرتين، وذلك في ظل سياقٍ رقمي متحولٍ باستمرار، أصبح يدفع البحث السوسيولوجي، يوما بعد يوم، إلى الانتقال من براديغم "المجتمع" (La société)، إلى براديغم "الحركية" (La mobilité) في تجلياتها الرقمية، والتي تتسم معها العلاقات الاجتماعية بطابع غير حي ومؤقت وسطحي، وتترافق بانبناء أشكال متحولة للاتصال والانفصال، وببروز منطق متجدد في تمثل قضايا الانتماء والالتزام والحرية، وفي التمييز بين الأنا والآخر وبين الهوية الفردية والهوية الجماعية.

على هذا الأساس، وإذا كانت دراسة "الشبكات الاجتماعية" من منظور سوسيولوجيا عامة في الثقافة والترفيه الموضوعَ المفضل للأبحاث السوسيولوجية المعاصرة، فإن التحديات التي تعرفها مجالات أخرى، من قبيل الشغل والعلاقات المهنية في السياق الرقمي، تعكس الحاجة الملحة إلى

الانفتاح على مواضيع قطاعية، من وجهة نظر إيثنو– سوسيولوجية، بهدف تحقيق فهم أدق وأشمل لتحولات العلاقات الاجتماعية في السياق الراهن، خصوصا وأن فهم هذه التحولات في مؤسسات سوسيو– مهنية كالمقاولة، مثلا، من شأنه أن يقدم صورة مقطعية قابلة للتعميم حول تأثير تكنولوجيا الاتصال والتواصل الجديدة على العلاقات الاجتماعية داخل المجتمع المعاصر برُمَّتِه، على اعتبار أن "للمقاولة تلك القدرة على نمذجة هذا الأخير، والتأثير في أنماط حياة الأجراء والزبناء، الذين ليسوا سوى مواطنين داخله" (Saussois, 2021, p. 66)، حيث تقدم المقاولة، من هذا المنطلق، صورة مصغرة عما يمكن أن يعتمل داخل المجتمع، عبر السماح "بملاحظة علاقات القوة القائمة فيها وتأثير التحولات التكنولوجية عليها، والأشكال الجديدة لتنظيم العمل أو للإستراتيجيات التي تبلورها الهيئات النقابية وأرباب العمل" (2021, p. 67) ومختلف الأطراف الفاعلة فيها في السياق الرقمي.

إن العمل على موقعة البحث السوسيولوجي المعاصر ضمن حيز إيثنو– سوسيولوجي تتقاطع فيه سوسيولوجيا تكنولوجيا الاتصال والتواصل الرقمية وسوسيولوجيا العلاقات المهنية، مثلا، من شأنه أن يعمق البحث حول الديناميات العقلانية والهوياتية الجديدة التي أضحت تتحكم في تحول العلاقات الاجتماعية في السياق الرقمي، كما من شأنه أن يقدم صورة عن الكيفية التي تعتمل بها ميكانيزمات الهيمنة والإخضاع وإعادة إنتاج الفوارق الطبقية وعلاقات النوع، في ظل واقع اجتماعي جديد يقوم على أساس "الحضور عن بعد" وغياب "التفاعل الفيزيقي"، وحلول "الممارسات التفاعلية الرقمية" محل "العيش الجماعي المشترك" على أرض الواقع.

قائمة المراجع

1. اللجنة الخاصة بالنموذج التنموي. (2021). النموذج التنموي الجديد: تحرير الطاقات وبناء الثقة لتسريع المسيرة نحو التقدم والازدهار من أجل الجميع (التقرير العام)"، 149 صفحة. https://www.csmd.ma/rapport–ar

2. AIT KAIKAI, H. (2014). Appropriation des Technologies de l'Information et de la Communication au sein de l'Université marocaine :

Perceptions des étudiants. *frantice.net*, (8), pp. 33-49. http://frantice.net/index.php?id=861

3. AKOUN, A. (2002). Nouvelles techniques de communication et nouveaux liens sociaux. *Cahiers internationaux de sociologie*, 112, pp. 7-15. https://doi.org/10.3917/cis.112.0007

4. BARGLOW, Raymond. (1994). Crisis of the Self in the Age of Information. London : Routledge. Cité par Akoun, A. (2002). Nouvelles techniques de communication et nouveaux liens sociaux. *Cahiers internationaux de sociologie*, 112, pp. 7-15. https://doi.org/10.3917/cis.112.0007

5. BENABDELHAK, K. (2020). Place des NTIC et de la communication digitale au sein de l'administration publique marocaine à l'ère du COVID-19, *Revue Française d'Economie et de Gestion*, 1(5), pp. 138-157. https://www.revuefreg.fr/index.php/home/article/view/137/71

6. BERDI, A et SEBBAR, A. (2018). Contribution à l'étude du caractère stratégique des Technologies d'Information et de Communication (TIC) pour l'organisation : Cas du secteur bancaire marocaine, *Revue Marocaine de recherche en management et marketing*, N°18, pp. 38-57. https://doi.org/10.48376/IMIST.PRSM/remarem-v10i2.13257

7. BERTAUX, Daniel. (1997). *Les récits de vie : perspective ethnosociologique*, Coll. Sociologie 128, n° 122, Sous la dir. de François de Singly, Paris: Éditions Nathan, 127 p.

8. BIAZ, A., BENNAMARA, A., KHYATI, A. et TALBI, M. (2009). *Intégration des technologies de l'information et de la communication dans le travail enseignant : état des lieux et perspectives.* UFR Ingénierie et Techniques de l'Éducation et de la Formation, FS Ben MSik, Maroc https://edutice.hal.science/file/index/docid/558936/filename/a0912d.htm

9. BRETON, Philippe. (2000). *Le culte de l'Internet : Une menace pour le lien social ?*, Paris : La Découverte, 124 p.

10. CESE (CONSEIL ECONOMIQUE, SOCIAL ET ENVIRONNEMENTAL). (2017). Technologies et valeurs : L'impact sur les jeunes (Rapport), Auto- Saisine n° 31/2017. 46 p. https://www.cese.ma/media/2020/10/Rapport-Technologies-et-valeurs.pdf

11. DAGIRAL, Eric et MARTIN, Olivier. (2017). Liens sociaux numériques : Pour une sociologie plus soucieuse des techniques, *Sociologie*, 8(1). 24 p. http://journals.openedition.org/sociologie/3149

12. DERÈZE, Gérard. (1993). Éléments pour une ethno-sociologie des organisations, *Communication et organisation*, 4, 16 p. https://doi.org/10.4000/communicationorganisation.1653

13. DURAND, Jean-Pierre et SCARDIGLI, Victore. (1997). Sociologie de la communication et des technologies de l'information, dans Jean-Pierre DURAND et Robert WEIL (dir.), *Sociologie contemporaine*, Paris : Vigot, pp. 658-677.

14. DURKHEIM, Émile. (1991 [1893]). *De la division du travail social*, PUF, 416 p.

15. HAMPTON, Keith. et WELLMAN Barry. (2000). Examining Community in the Digital Neighborhood Early Results from Canada's Wired Suburb. In Toru Ishida and Katherine Isbister (Eds.), *Digital Cities : Technologies, Experiences, and Future Perspectives.* Lecture Notes in Computer Science 1765. Heidelberg, Germany : Springer-Verlag, pp. 194-208. https://www.mysocialnetwork.net/downloads/digitalcities-final-r.pdf

16. HOBSBAWM, Eric-J. (2011 [1962]). *L'Ère des révolutions : 1789-1848*, Paris : Fayard/Pluriel, 434 p.

17. IKKOU, L., BERDI, A. (2019). L'apport de la gestion des ressources des technologies d'information à la performance des organisations publiques au Maroc, *Revue "Repères et Perspectives Economiques"*, 3(1), pp. 128-140. https://doi.org/10.34874/IMIST.PRSM/RPE/21866

18. IRES (INSTITUT ROYAL DES ETUDES STRATEGIQUES). (2012). *l'enquête nationale sur le lien social au maroc (Rapport)*, https://www.ires.ma/fr/publications/rapports-generaux/rapport-de-lenquete-nationale-sur-le-lien-social-au-maroc?taxo=1

19. ITU (International Telecommunication Union). (2022). *Measuring digital development: Facts and Figures 2022*, 26 p. https://www.itu.int/hub/publication/d-ind-ict_mdd-2022/

20. JOUET, J. (2003). Technologies de communication et genre: Des relations en construction. *Réseaux*, 120(4), pp. 53-86. https://www.cairn.info/revue-reseaux1-2003-4-page-53.htm

21. LAFLAMME, Simon et LAFORTUNE, Sylvie. (2006). Utilisation d'Internet et relations sociales, *Communication*, 24(2), pp. 97-128. https://www.researchgate.net/publication/30500587_Utilisation_d'Internet_et_relations_sociales

22. MARTIN, Olivier. (2006). *Les hommes et les choses : Objets et techniques en société*, mémoire d'HDR, Paris : IEP. Cité dans DAGIRAL, Eric et MARTIN, Olivier. (2017). Liens sociaux numériques : Pour une sociologie plus soucieuse des techniques, *Sociologie*, 8(1). 24 p. http://journals.openedition.org/sociologie/3149

23. NIE, Norman-H and ERBRING, Lutz. (2002). Internet and Society : A Preliminary report, *IT&Society*, 1(issue 1), pp. 275-283. http://www.nomads.usp.br/documentos/textos/cultura_digital/tics_arq_urb/internet_society%20report.pdf

24. NISBET, Robert-A. (2012 [1966]). *La tradition sociologique*, PUF, Quadrige, 416 p.

25. OULMAATI, K., EZZAHRI, S. & SAMADI, K. (2017). Usage des TIC et apprentissages des étudiants inscrits en études islamiques à l'Université Abdelmalek Essaadi. *Revue internationale des technologies en pédagogie universitaire / International Journal of Technologies in*

Higher Education, *14*(1), pp. 40–56. https://doi.org/10.18162/ritpu-2017-v14n1-03

26. PAUGAM, Serge. (2018 [2008]). *Le lien social*, PUF, Collection : Que sais-je ? , 128 p.

27. RHEIN, Catherine. (2002). Intégration sociale, intégration spatiale. *L'Espace géographique*, 31, pp. 193-207. https://doi.org/10.3917/eg.313.0193

28. SAUSSOIS, J. (2021). L'entreprise est-elle toujours une catégorie pertinente de la sociologie ?. *Sociologies pratiques*, H-, pp. 63-76. https://doi.org/10.3917/sopr.hs03.0063

29. SCHLANGER, Nathan. (2012). Marcel Mauss et l'étude des techniques dans les sciences sociales. In M. Mauss, *Techniques, technologie et civilisation* (édition et présentation de Nathan Schlanger), Paris : PUF, pp. 1-134.

30. SFEZ, Lucien. (2002). *Technique et Idéologie: Un enjeu de pouvoir*, Le Seuil. 338 p.

31. SPENCER, Herbert. (2008 [1885]). *L'Individu contre l'État*, Manucius, 126 p.

32. TONNIES, Ferdinand. (2010 [1887]). *Communauté et société: Catégories fondamentales de la sociologie pure*. PUF, Collection : Le lien social, 336 p.

33. UCLA center for communication policy. (2000). *The UCLA Internet Report : Surveying the Digital Future*. 53 p. https://www.digitalcenter.org/wp-content/uploads/2012/12/2000_digital_future_report_year1.pdf

34. WOLTON, Dominique. (1999). *Internet et après ? Une théorie critique des nouveaux médias*, Paris, Flammarion.